علمت أمس فما أعمل غدًا وهذا مولدي قد عرفته فأين أموت[1]، فنزلت وعن النبي ﷺ مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب إياكم والكهانة فإنّ الكهانة تدعو إلى الشرك والشرك وأهله في النار وعن المنصور أنه أهمه معرفة مدّة عمره فرأى في منامه كأن خيالاً أخرج يده من البحر، وأشار إليه بالأصابع الخمس فاستفتى العلماء في ذلك فتأولوها بخمس سنين وبخمسة أشهر وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة رحمه الله تأويلها: أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه ﴿عنده علم الساعة﴾ أيان مرساها ﴿وينزل الغيث﴾ في إبانه من غير تقديم ولا تأخير وفي بلد لا يتجاوزه به ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال ﴿وما تدري نفس﴾ برة، أو فاجرة ﴿ماذا تكسب غدًا﴾ من خير أو شر وربما كانت عازمة على خير فعملت شرًا وعازمة على شر، فعملت خيرًا ﴿وما تدري نفس﴾ أين تموت وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت: لا أبرحها، وأقبر فيها فترمى بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ولا حدّثتها به ظنونها وروى أنّ ملك الموت مرّ على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل: من هذا قال: ملك الموت فقال: كأنه يريدني وسأل سليمان أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل، ثم قال: ملك الموت لسليمان كان دوام نظري إليه تعجبًا منه لأني أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك[3] وجعل العلم لله والدراية للعبد لما في الدراية من معنى: الختل والحيلة والمعنى أنها لا تعرف إن أعملت حيلها ما يلصق بها ويختص ولا يتخطاها ولا شيء أخص بالإنسان من كسبه وعاقبته فإذا لم يكن له طريق إلى معرفتهما كان من معرفة ما عداهما أبعد، وقرئ بأية أرض وشبه سيبويه تانيث أي بتانيث كل في قولهم كلتهنّ عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقًا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرًا عشرًا بعدد من عمل المعروف ونهى عن المنكر[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة السجدة مكية

الٓمٓ ﴿١﴾.

﴿الٓمٓ﴾ على أنها اسم السورة مبتدأ خبره.

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾.

﴿تنزيل الكتاب﴾ وإن جعلتها تعديدًا للحروف ارتفع تنزيل الكتاب بأنه خبر مبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ خبره ﴿لا ريب فيه﴾ والوجه أن يرتفع بالابتداء وخبره ﴿من رب العالمين﴾ ولا ريب فيه اعتراض لا محل له والضمير في فيه راجع إلى مضمون الجملة كأنه قيل: لا ريب في ذلك أي في كونه منزلاً من رب العالمين ويشهد لوجاهته قوله:

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾.

﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن قولهم هذا مفترى إنكار: لأن يكون من رب العالمين وكذلك قوله ﴿بل هو الحق من ربك﴾، وما فيه من تقدير أنه من الله وهذا أسلوب صحيح محكم أثبت أوّلا أن تنزيله من رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ لأن أم هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة إنكارًا لقولهم وتعجيبًا منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك ونظيره أن يعلل العالم في المسئلة بعلة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز كقول المتكلمين النظر أوّل الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكلف، ثم يعترض عليه فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك، ثم يعود إلى تقرير كلامه وتمشيته.

فإن قُلْتَ: كيف نفى أن يرتاب في أنه من الله وقد أثبت ما هو أطم من الريب، وهو قولهم افتراه! **قُلْتُ**: معنى لا ريب فيه أن لا مدخل للريب في أنه تنزيل الله؛ لأن نافي الريب ومميطه معه لا ينفك عنه، وهو كونه معجزًا للبشر

---

(1) قال أحمد: وهذا الجواب تتوقف صحته على أنّ هذا الخطاب كان خاصّاً بالموجودين حينئذ، والصحيح أنه عام لهم، ولكل من ينطلق عليه اسم الناس، فالجواب المعتبر والله أعلم، أنّ الله تعالى لما أكد الوصية على الآباء، وقرن شكرهم بوجوب شكره عزّ وجلّ، وأوجب على الولد أن يكفي والده ما يسوءه بحسب نهاية إمكانه قطع ههنا، وهم الوالد في أن يكون الولد في القيامة مجزيه بحقه عليه، ويكفيه ما يلقاه من أهوال القيامة، كما أوجب الله عليه في الدنيا ذلك في حقه، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون = الوقوع؛ لأنّ الله حضه عليه في الدنيا كان جديراً بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم، ولا كذلك العكس فهذا جواب كاف شاف للعليل إن شاء الله تعالى.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، ومن سورة لقمان باب: «إن الله عنده علم الساعة...» (الحديث: 4778).

(3) رواه ابن ابي شيبة 13/205، كتاب: الزهد، باب: كلام سليمان.

(4) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في التفسير 3/79.

ومثله أبعد شيء من الريب وأما قولهم افتراه فإما قول متعنت مع علمه أنه من الله لظهور الإعجاز له، أو جاهل يقوله قبل التأمل والنظر لأنه سمع الناس يقولونه ﴿ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ كقوله: ﴿ما أنذر آباؤهم﴾[1] وذلك أن قريشًا لم يبعث الله إليهم رسولاً قبل محمد ﷺ.

فإن قُلْتَ: فإذا لم يأتهم نذير لم تقم عليهم حجة **قُلْتُ:** أما قيام الحجة بالشرائع التي لا يدرك علمها إلا بالرسل فلا وأما قيامها بمعرفة الله وتوحيده وحكمته، فنعم لأن أدلة العقل الموصلة إلى ذلك معهم في كل زمان[2] ﴿لعلهم يهتدون﴾ فيه وجهان أن يكون على الترجي من رسول الله ﷺ كما كان لعله يتذكر على الترجي من موسى وهرون عليهما السلام وأن يستعار لفظ الترجي للإرادة.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾.

﴿ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع﴾ قُلْتُ: هو على معنيين أحدهما: أنكم إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم وليًا أي ناصرًا ينصركم ولا شفيعًا يشفع لكم، والثاني: أن الله وليكم التي يتولى مصالحكم وشفيعكم أي: ناصركم على سبيل المجاز لأن الشفيع ينصر المشفوع له، فهو كقوله تعالى: و**﴿ما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾** فإذا خذلكم لم يبق لكم وليّ ولا نصير **﴿الأمر﴾** المأمور به من الطاعات والأعمال الصالحة ينزله مدبرًا **﴿من السماء إلى الأرض﴾** ثم لا يعمل به ولا يصعد إليه ذلك المأمور به خالصًا كما يريده ويرتضيه إلا في مدّة متطاولة لقلة عمال الله والخلص من عباده وقلة الأعمال الصاعدة لأنه لا يوصف بالصعود إلا الخالص ودل عليه قوله على أثره قليلاً ما تشكرون أو يدبر أمر الدنيا كلها من السماء إلى الأرض لكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة كما قال: وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون **﴿ثم يعرج إليه﴾** أي يصير إليه ويثبت عنده ويكتب في صحف ملائكته كل وقت من أوقات هذه المدّة ما يرتفع من ذلك الأمر، ويدخل تحت الوجود إلى أن تبلغ المدّة آخرها ثم يدبر أيضًا ليوم آخر وهلم جرا إلى أن تقوم الساعة وقيل: ينزل الوحي مع جبريل عليه السلام من السماء إلى الأرض، ثم يرجع إليه ما كان من قبول الوحي أو رده مع جبريل وذلك في وقت هو في الحقيقة ألف سنة لأن المسافة مسيرة ألف سنة في الهبوط والصعود لأن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة، وهو يوم من أيامكم لسرعة جبريل؛ لأنه يقطع مسيرة ألف سنة في يوم واحد وقيل: يدبر أمر الدنيا من السماء إلى الأرض إلى أن تقوم الساعة ثم يعرج إليه ذلك الأمر كله أي: يصير إليه ليحكم فيه **﴿في يوم كان مقداره ألف سنة﴾** وهو يوم القيامة، وقرأ ابن أبي عبلة يعرج على البناء للمفعول.

ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾.

وقرئ: **﴿يعدون﴾** بالتاء والياء **﴿أحسن كل شيء﴾** حسنة لأنه ما من شيء خلقه إلا وهو مرتب على ما اقتضته الحكمة وأوجبته المصلحة فجميع المخلوقات حسنة وإن تفاوتت إلى حسن وأحسن كما قال: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله قيمة المرء ما يحسن وحقيقته يحسن معرفته أي: يعرفه معرفة حسنة بتحقيق وإتقان، وقرئ خلقه على البدل أي أحسن فقد خلق كل شيء وخلقه على الوصف أي كل شيء خلقه فقد أحسنه.

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾.

سميت الذرية نسلاً لأنها تنسل منه أي تنفصل منه وتخرج من صلبه ونحوه قولهم للولد سليل ونجل.

ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾.

و**﴿سواه﴾** قوّمه كقوله تعالى: **﴿في أحسن تقويم﴾**[3]، ودلّ بإضافة الروح إلى ذاته على أنه خلق عجيب لا يعلم كنهه إلا هو كقوله: **﴿ويسألونك عن الروح﴾**[4] الآية كأنه.

قال ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبمعرفته.

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾.

﴿وقالوا﴾ قيل القائل أبي بن خلف ولرضاهم بقوله أسند إليهم جميعًا، وقرئ أئنا وأنا على الاستفهام وتركه. **﴿ضللنا﴾** صرنا ترابًا وذهبنا مختلطين بتراب الأرض لا نتميز منه كما يضل الماء في اللبن أو غبنا **﴿في الأرض﴾** بالدفن فيها من قوله، وآب مضلوه بعين جلية،

---

(1) سورة يسّ، الآية: 6.

(2) قال أحمد: مذهب أهل السنة أنه لا يدرك علم شيء من أحكام الله تعالى التكليفية إلا بالشرع، وما نكره الزمخشري تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل، وقد مجها السمع فلم يبح بها القلم فاعرض عنه حتى يخوض في حديث غيره، وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل إليهم، كأبيهم إسماعيل = وغيره، والمراد بقوله تعالى: ﴿ما أتاهم من نذير﴾ يعني: ذرية العرب في زمانه عليه الصلاة والسلام إذ لم يبعث إليهم نذير معاصر، فلطف الله تعالى بهم وبعث فيهم رسولاً منهم.

(3) سورة التين، الآية: 4.

(4) سورة الإسراء، الآية: 85.

وقرأ علي وابن عباس رضي الله عنهما ضللنا بكسر اللام يقال ضل يضل وضل يضل وقرأ الحسن رضي الله عنه صللنا من صل اللحم وأصل إذا أنتن وقيل صرنا من جنس الصلة وهي الأرض.

فإن **قُلْتَ**: بم انتصب الظرف في أئذا أضللنا **قُلْتُ**: بما يدل عليه إنا لفي خلق جديد وهو نبعث أو يجدد خلقنا، لقاء ربهم هو الوصول إلى العاقبة من تلقى ملك الموت، وما وراءه فلما ذكر كفرهم بالانشاء أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في الكفر وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالإنشاء وحده ألا ترى كيف خوطبوا بتوفى ملك الموت وبالرجوع إلى ربهم بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء وهذا معنى لقاء الله على ما ذكرنا.

۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾.

والتوفي استيفاء النفس وهي الروح قال الله تعالى الله يتوفى الأنفس، وقال أخرجوا أنفسكم وهو أن يقبض كلها لا يترك منها شيء من قولك توفيت حقي من فلان واستوفيته إذا أخذته وافيًا كاملاً من غير نقصان والتفعل والاستفعال يلتقيان في مواضع منها تقصيته واستقصيته وتعجلته واستعجلته، وعن مجاهد رضي الله عنه حويت لملك الموت الأرض وجعلت له مثل الطست يتناول منها حيث يشاء وعن قتادة يتوفاهم ومعه أعوان من الملائكة وقيل ملك الموت يدعو الأرواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾.

﴿ولو ترى﴾ يجوز أن يكون خطابًا لرسول الله ﷺ وفيه وجهان أن يراد به التمني كأنه قال وليتك ترى كقوله ﷺ للمغيرة: «لو نظرت إليها».[1] والتمني لرسول الله ﷺ كما كان الترجي له في لعلهم يهتدون لأنه تجرع منهم الغصص، ومن عداوتهم وضرارهم فجعل الله له تمني أنّ يراهم على تلك الصفة الفظيعة من الحياء والخزي والغم ليشمت بهم وأن تكون لو الامتناعية، قد حذف جوابها وهو لرأيت أمرًا فظيعًا أو لرأيت أسوأ حال ترى ويجوز أن يخاطب به كل أحد كما يقول فلان لئيم إن أكرمته أهانك وإن أحسنت إليه أساء إليك فلا تريد به مخاطبًا بعينه فكأنك قلت إن أكرم وإن أحسن إليه ولو وإذ كلاهما للمضي، وإنما جاز ذلك لأنّ المترقب من الله بمنزلة الموجود المقطوع به في تحققه ولا يقدر لترى ما يتناوله كأنه قيل ولو تكون منك الرؤية وإذا ظرف له، يستغيثون بقولهم **﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾**.

فلا يغاثون يعني أبصرنا صدق وعدك ووعيدك وسمعنا منك تصديق رسلك أو كنا عميًا وصمًا فأبصرنا وسمعنا **﴿فارجعنا﴾** هي الرجعة إلى الدنيا.

وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾.

﴿لآتينا كل نفس هداها﴾ على طريق الإلجاء والقسر ولكننا بنينا الأمر على الاختيار دون الاضطرار فاستحبوا العمى على الهدى، فحقت كلمة العذاب على أهل العمى دون البصراء الا ترى إلى ما عقبه به من قوله:

فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾.

﴿فذوقوا بما نسيتم﴾ فجعل ذوق العذاب نتيجة فعلهم من نسيان العاقبة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها والمراد بالنسيان خلاف التذكر يعني: أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها ثم قال: **﴿إنا نسيناكم﴾** على المقابلة أي جازيناكم جزاء نسيانكم وقيل هو، بمعنى: الترك أي تركتم الفكر في العاقبة فتركناكم من الرحمة وفي استئناف قوله: **﴿إنا نسيناكم﴾** وبناء الفعل على أن واسمها تشديد في الانتقام منهم، والمعنى: فذوقوا هذا أي ما أنتم فيه من نكس الرؤس والخزي والغم بسبب نسيان اللقاء، وذوقوا العذاب المخلد في جهنم بسبب ما عملتم من المعاصي والكبائر الموبقة[2].

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾.

﴿إذا ذكروا بها﴾ أي وعظوا سجدوا تواضعا لله وخشوعًا وشكرًا على ما رزقهم من الإسلام **﴿وسبحوا بحمد ربهم﴾** ونزهوا الله من نسبة القبائح إليه وأثنوا عليه حامدين له **﴿وهم لا يستكبرون﴾** كما يفعل من بصر مستكبرًا كان لم يسمعها ومثله قوله تعالى: **﴿إن الذين أوتوا العلم من قبله﴾**[3] إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدًا ويقولون سبحان ربنا.

تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾.

---

(1) أخرجه ابن حبان في كتاب: النكاح، (الحديث: 4043)، وأخرجه الترمذي في كتاب: النكاح، باب: ما جاء في النظر إلى المخطوبة، (الحديث: 1087)، وابن ماجه في كتاب: النكاح، باب: النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها، (الحديث: 1865)، وأحمد في المسند 4/226. والحاكم في المستدرك، 2/165.

(2) قال أحمد: قد تمهد عن مذاهب أهل السنة أن المقتضى لاستحقاق الخلود في العذاب هو الكفر خاصة، وأما ما دونه من الكبائر فلا يوجب خلوداً، والمسألة سمعية وأدلتها من الكتاب والسنة قطعية خلافاً للقدرية.

(3) سورة الإسراء، الآية: 107 ـ 108.

﴿تتجافى﴾ ترتفع وتتنحى ﴿عن المضاجع﴾ عن الفرش ومواضع النوم داعين ربهم عابدين له لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته وهم المتهجدون وعن رسول الله ﷺ في تفسيرها قيام العبد من الليل[1] وعن الحسن رضي الله عنه أنه التهجد، وعن رسول الله ﷺ إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادي بصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقم الذي كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء فيقومون وهم قليل، ثم يرجع فينادي ليقم الذين كانوا يحمدون الله في البأساء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعًا إلى الجنة ثم يحاسب سائر الناس[2] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة[3] فنزلت فيهم وقيل هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها.

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ما أخفى لهم﴾ على البناء للمفعول ما أخفى لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وما أخفى لهم وما نخفى لهم وما أخفيت لهم الثلاثة للمتكلم وهو الله سبحانه وما بمعنى الذي أو بمعنى أي، وقرئ: ﴿من قرة أعين﴾ وقرأت أعين والمعنى لا تعلم النفوس كلهنّ ولا نفس واحدة منهنّ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل أي نوع عظيم من الثواب ادخر الله لأولئك وأخفاه من جميع خلائقه لا يعلمه إلا هو مما تقربه عيونهم، ولا مزيد على هذه العدّة ولا مطمح وراءها، ثم قال ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فحسم أطماع المتمنين[4]، وعن النبي ﷺ يقول الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله[5] ما أطلعتهم عليه اقرؤا إن شئتم، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرّة أعين وعن الحسن رضي الله عنه أخفى القوم أعمالاً في الدنيا، فأخفى الله له ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾.

﴿كان مؤمنًا﴾ و﴿كان فاسقًا﴾ محمولان على لفظ من و﴿لا يستوون﴾ محمول على المعنى بدليل قوله تعالى:

أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾.

﴿أما الذين آمنوا وأما الذين فسقوا﴾ ونحوه قوله تعالى: ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك و﴿جنات المأوى﴾ نوع من الجنان قال الله تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى﴾ سميت بذلك لما روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال: تأوي إليها أرواح الشهداء وقيل: هي عن يمين العرش، وقرئ: ﴿جنة المأوى﴾ على التوحيد ﴿نزلاً﴾ عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عامًا.

﴿فمأواهم النار﴾ أي: ملجؤهم ومنزلهم، ويجوز أن يراد فجنة مأواهم النار أي: النار لهم مكان جنة المأوى للمؤمنين كقوله فبشرهم بعذاب أليم.

وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾.

﴿العذاب الأدنى﴾ عذاب الدنيا من القتل والأسر وما محنوا به من السنة سبع سنين وعن مجاهد رضي الله عنهما عذاب القبر و ﴿العذاب الأكبر﴾ عذاب الآخرة أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿لعلهم

---

(1) أخرجه أحمد في المسند، 5/237. والحاكم في المستدرك 2/413.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، 2/363.

(3) أخرجه أبو داود في السنن، كتاب: الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (الحديث: 1322).

(4) قال أحمد: يشير إلى أهل السنة لاعتقادهم أنّ المؤمن العاصي موعود بالجنة، ولا بد من دخوله إياها وفاء بالوعد الصادق، وأن أحداً لا يستحق على الله بعمله شيئاً، فلما وجد قوله تعالى: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ اغتنم الفرصة في الاستشهاد على معتقد القدرية في أنّ الأعمال أسباب موجبة للجزاء، ولا دليل في ذلك لمعتقدهم مع قوله ﷺ: «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة». فهذا الحديث يوجب حمل الآية على وجه يجمع بينها وبينه، وذلك إما أن تحمل الآية على أن المراد منها قسمة المنازل بينهم في الجنة، فإنه على حسب الأعمال وليس بذاك، فإن المذكور في الآية مجرّد دخول الجنة لا اقتسام درجاتها، وإما أن تحمل وهو الظاهر والله أعلم. على أنّ الله تعالى لما وعد المؤمن = جنته، ووعده يجب أن يكون حقاً وصدقاً تعالى وتقدّس صارت الأعمال بالوعد، كأنها أسباب موجبات فعوملت في هذه العبارة معاملتها، والمقصود من ذلك تأكيد صدق الوعد في النفوس، وتصوره بصورة المستحق بالعمل كالأجرة المستحقة شاهداً على العمل من باب مجاز التشبيه والله أعلم. وذكر الزمخشري الحديث المشهور وهو: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اقرؤا إن شئتم: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين﴾ وكان جدي رحمه الله يستحسن أن تقرأ الآية تلو الحديث المذكور بسكون الياء من أخفي ورده إلى المتكلم، وهي من القراآت المستفيضة، والسبب في اختيار ذلك مطابقة صدر الحديث، وهو أعددت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ليكون الكل راجعاً إلى الله تعالى مسنداً إلى ضمير اسمه عزّ وجل صريحاً والله الموفق.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (الحديث: 3244)، ومسلم في كتاب: الجنة، الحديث: 2 ـ 2824).

يرجعون﴾ أي: يتوبون عن الكفر أو لعلهم يريدون الرجوع ويطلبونه كقوله تعالى: ﴿فارجعنا نعمل صالحًا﴾[1] وسميت إرادة الرجوع رجوعًا كما سميت إرادة القيام قيامًا في قوله تعالى: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾[2] ويدل عليه قراءة من قرأ يرجعون على البناء للمفعول.

فإن قُلْتَ: من أين صح تفسير الرجوع بالتوبة ولعل من الله إرادة وإذا أراد الله شيئًا كان، ولم يمتنع وتوبتهم مما لا يكون ألا ترى أنها لو كانت مما يكون لم يكونوا ذائقين العذاب الأكبر **قُلْتُ:** إرادة الله تتعلق بأفعاله وأفعال عباده، فإذا أراد شيئًا من أفعاله كان ولم يمتنع للاقتدار، وخلوص الداعي وأما أفعال عباده فإما أن يريدها وهم مختارون لها أو مضطرّون إليها بقسره وإلجائه فإن أرادها وقد قسرهم عليها فحكمها حكم أفعاله، وإن أرادها على أن يختاروها وهو عالم أنهم لا يختارونها لم يقدح ذلك في اقتداره كما لا يقدح في اقتدارك إرادتك أن يختار عبدك طاعتك، وهو لا يختارها؛ لأنّ اختياره لا يتعلق بقدرتك وإذا لم يتعلق بقدرتك لم يكن فقده دالاً على عجزك[3] وروى في نزولها أنه شجر بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد ابن عقبة بن أبي معيط يوم بدر كلام، فقال له الوليد: اسكت فإنك صبي أنا أشبّ منك شبابًا وأجلد منك جلدًا وأنرب منك لسانًا وأحدّ منك سنانًا وأشجع منك جنانًا وأملأ منك حشوًا في الكتيبة فقال له علي رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق[4] فنزلت عامّة للمؤمنين والفاسقين فتناولتهما وكل من كان في مثل حالهما، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما، أنه قال للوليد كيف تشتم عليًا وقد سماه الله مؤمنًا في عشر آيات وسماك فاسقًا[5].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾.

ثم في قوله ﴿ثم أعرض عنها﴾ للاستبعاد والمعنى: أنّ الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعادًا لتركه الانتهاز ومنه ثم في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرّة يرى غمرات الموت ثم يزورها

استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها واطلع على شدّتها.

فإن قُلْتَ: هلا قيل إنا منه منتقمون! **قُلْتُ:** لما جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامّة بالانتقام منهم، فقد دلّ على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾.

﴿الكتاب﴾ للجنس والضمير في ﴿لقائه﴾ له ومعناه إنا آتينا موسى عليه السلام مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ولقيت نظيره كقوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤن الكتاب من قبلك﴾[6] ونحو قوله من لقائه قوله: ﴿وإنك لتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم﴾[7] وقوله: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا﴾[8] وجعلنا الكتاب المنزل على موسى عليه السلام ﴿هدى﴾ لقومه.

وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿وجعلنا منهم ائمة يهدون﴾ الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه لصبرهم وإيقانهم بالآيات وكذلك لنجعلنّ الكتاب المنزل إليك هدى ونورًا ولنجعلنّ من أمّتك أئمة يهدون مثل تلك الهداية لما صبروا عليه من نصرة الدين، وثبتوا عليه من اليقين وقيل: من لقائك موسى عليه السلام ليلة الإسراء أو يوم القيامة وقيل: من لقاء موسى عليه السلام الكتاب أي: من تلقيه له بالرضا والقبول، وقرئ: ﴿لما صبروا﴾ ولما صبروا أي: لصبرهم وعن الحسن رضي الله عنه صبروا عن الدنيا، وقيل: إنما جعل الله التوراة هدى لبني إسرائيل خاصة ولم يتعبد بما فيها ولد إسمعيل عليه السلام.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿يفصل بينهم﴾ يقضي فيميز المحق في دينه من المبطل، الواو في:

أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى

---

(1) سورة السجدة، الآية: 12.

(2) سورة المائدة، الآية: 6.

(3) قال أحمد: هذا الفصل رديء جداً مفرّع على الإشراك الجلي لا على الإشراك الخفيّ، فاعتصم بدليل الوحدانية على ردّه واجتنابه من أصله والله المستعان، وإنما جرّه في تفسير لعلّ إلى الإرادة والحق في تفسيرها أنها لترجي المخاطبين امتناع الترجي على الله تعالى، كذا فسرها سيبويه فيما تقدّم والله أعلم.

(4) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص: 198.

(5) قال أحمد: نكر للسبب المحقق لأنّ المراد بالفاسق وبالذين فسقوا الذين كفروا؛ لأنها نزلت في الوليد وهو كافر حينئذ، ثم أدرج فيه المؤمن تعصباً لمذهبه في وجوب خلود فساق المؤمنين كفساق الكافرين، فلم يزل يورد هذه العقائد الفواسد ولقد اتسع الخرق على الراقع.

(6) سورة يونس، الآية: 94.

(7) سورة النمل، الآية: 6.

(8) سورة الإسراء، الآية: 13.

مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾.

﴿أولم يهد﴾ للعطف على معطوف عليه منوى من جنس المعطوف والضمير في **﴿لهم﴾** لأهل مكة، وقرئ بالنون والياء والفاعل ما دلّ عليه **﴿كم أهلكنا﴾** لأنّ كم لا تقع فاعلة لا يقال: جاءني كم رجل تقديره أولم يهد لهم كثرة إهلاكنا القرون أو هذا الكلام كما هو بمضمونه، ومعناه كقولك يعصم لا إله إلا الله الدماء والأموال ويجوز أن يكون فيه ضمير الله بدلالة القراءة بالنون و**﴿القرون﴾** عاد وثمود وقوم لوط **﴿يمشون في مساكنهم﴾** يعني: أهل مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم وبلادهم وقرئ يمشون بالتشديد.

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿الجرز﴾ الأرض التي جرز نباتها أي: قطع إمّا لعدم الماء، وإمّا لأنه رعى وأزيل ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جزر ويدل عليه قوله.

﴿فنخرج به زرعًا﴾، وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنها أرض اليمن وعن مجاهد رضي الله عنه: هي أبين، به بالماء **﴿تأكل﴾** من الزرع **﴿أنعامهم﴾** من عصفه **﴿وأنفسهم﴾** من حبه وقرئ يأكل بالياء.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾.

الفتح النصر أو الفصل بالحكومة من قوله: **﴿ربنا افتح بيننا﴾**[1] وكان المسلمون يقولون إنّ الله سيفتح لنا على المشركين، ويفتح بيننا وبينهم فإذا سمع المشركون قالوا **﴿متى هذا الفتح﴾** أي في أيّ وقت يكون **﴿إن كنتم صادقين﴾** في إنه كائن.

قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾.

و**﴿يوم الفتح﴾** يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم، وقيل هو يوم بدر وعن مجاهد والحسن رضي الله عنهما يوم فتح مكة.

فإن قُلْتَ: قد سألوا عن وقت الفتح فكيف ينطبق هذا الكلام جوابًا على سؤالهم؟ **قُلْتُ:** كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم على وجه التكذيب والاستهزاء فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا.

فإن قُلْتَ: فمن فسره بيوم الفتح أو بيوم بدر كيف يستقيم على تفسيره أن لا ينفعهم الإيمان وقد نفع الطلقاء يوم فتح مكة وناسًا يوم بدر! **قُلْتُ:** المراد أنّ المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم في حال القتل كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿وانتظر﴾ النصرة عليهم وهلاكهم **﴿إنهم منتظرون﴾** الغلبة عليكم وهلاككم كقوله تعالى: **﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾**[2] وقرأ ابن السميفع رحمه الله منتظرون بفتح الظاء ومعناه وانتظر هلاكهم، فإنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم يعني: أنهم هالكون لا محالة أو وانتظر نلك فإنّ الملائكة في السماء ينتظرونه. عن رسول الله ﷺ: من قرأ الٓمٓ تنزيل وتبارك الذي بيده الملك أعطى من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر[3] وقال: من قرأ الٓمٓ تنزيل في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام[4].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأحزاب مدنية

عن زرّ قال: قال لي أبيّ بن كعب رضي الله عنه: كم تعدّون سورة الأحزاب قلت: ثلاثًا وسبعين آية قال: فوالذي يحلف به أبيّ بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة[5]، أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم أراد أبيّ رضي الله عنه أنّ ذلك من جملة ما نسخ من القرآن، وأمّا ما يحكى أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة رضي الله عنها فأكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض[6] جعل نداءه بالنبيّ والرسول في قوله:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾.

﴿يا أيها النبيّ اتق الله﴾ يا أيها النبي لمَ تحرّم، يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك، وترك نداءه باسمه كما قال: يا آدم، يا موسى، يا عيسى، يا داود، كرامة له وتشريفًا وربّا بمحله وتنويهًا بفضله.

فإن قُلْتَ: إن لم يوقع اسمه في النداء، فقد أوقعه في الإخبار في قوله محمد رسول الله وما محمد إلا رسول.

---

(1) سورة يوسف، الآية: 89.

(2) سورة التوبة، الآية: 52.

(3) ذكره الثعلبي وابن مردويه، وذكره الواحدي في التفسير، الزيلعي 3/88.

(4) قال الزيلعي غريب جدًا، الزيلعي 3/89.

(5) أخرجه الحاكم في المستدرك 2/415، وابن حبان في كتاب: الحدود، باب: الزنى وحده (حديث: 4428).

(6) أخرجه الدارقطني في السنن، كتاب: الرضاع (الحديث: 22)، 4/179.